تمثيل المرأة في الخطاب الذكوري
في
ديوان الحماسة لأبي تمام

إعداد

عبير محمود أحمد

باحثة دكتوراه بقسم الدراسات الأدبية

كلية دار العلوم – جامعة الفيوم

الملخص:

إن الفكرة الرئيسة التي قام عليها النقد الثقافي، هي نقد الأنساق الثقافية التي تضمنتها الخطابات الأدبية والثقافية بشكل عام، وهي أنساق ظاهرة ومخبوءة، والكشف عنها يتطلب قراءة ثقافية عميقة للخطاب الثقافي المدروس، والتي قد تعبر عن مضمون ثقافي مضمر.

ولما كان تمثيل المرأة في الثقافة أحد موضوعات النقد الثقافي الرئيسة، وهو يشير إلى الطريقة التي يتم بها تناول صورة المرأة في الخطاب الشعري، وتعكس ما يسنده اليها المجتمع من الأدوار، وهذه التمثيلات تسهم في تشكيل الو اقع بجانب أنها انعكاس له، فالكثير من النصوص الثقافية تعمل من أجل إدامة صور المرأة النمطية (الإيجابية، والسلبية). لهذه الأسباب تقدمت ببحث موجز عن صورة المرأة الجسد والمرأة الشر في الخطاب الذكوري في ديوان الحماسة لأبي تمام.

الكلمات المفتاحية: المرأة - الخطاب. الحماسة.

Abstract:

The main idea on which cultural criticism is based is to criticize the cultural systems that include literary and cultural discourses in general. These are apparent and hidden systems, and revealing them requires a deep cultural reading of the studied cultural discourse, which may express an implicit cultural content.

Since the representation of women in culture is one of the main topics of cultural criticism, it refers to the way in which the image of women is addressed in poetic discourse, and reflects the roles that society assigns to them. These representations contribute to shaping reality in addition to being a reflection of it. Many cultural texts work to perpetuate stereotypical images of women (positive and negative). For these reasons, I have presented a brief research on the image of women as bodies and evil women in male discourse in Abu Tammam's Diwan Al-Hamasah.

Keywords: **Women's - Discourse - Al-Hamasah**

المقدمة

يظهر تمثيل المرأة في الخطاب الشـعري في حالات متفاوتة بين الإعزاز والتدني، مقارنة بالتمثيل الذكوري في تلك المجتمعات، وهي صورة أسهمت ثقافة تلك العصور في بثها وتعزيز نصوصها الثقافية سواء في الأدب أو غيره، وهنا تظهر مهمة القارئ. وحسب قول الغذامي: تكمن "مهمة الباحث في كشف ما تخبئه الأشعار من قيم معرفية، وهو ليس عملًا في جماليات النصوص، و إنما هو عمل في كشف النسق الكتابي، وحركة اللغة والإنسان، من حيث الكتابة وشعريتها في ضوء القراءة وثقافيتها، والشعر هنا، كقيمة إنشائية، يتقابل ويتضام مع القراءة كقيمة ثقافية"[1].

فمن جهة الإعزاز نشير إلى تمثيل المرأة في ثقافات بعض العصور كرمز للتضحية والعطاء، ومن ناحية التدني نشير إلى تمثيل المرأة الجسد/ المرأة الشر.

تمثيل المرأة كرمز للتضحية والعطاء

بالرغم من معاناة الإنسان العربي قديمًا من صعوبة الحياة ومرارة العيش وسط هذه المعاناة والبيئة القاسية، فإنه كان يجد في المرأة الملجأ والملاذ والحضن الدافئ؛ "فكانت في مقام الزوجة والحبيبة التي شغف حبّها، حتّى كتب بها القصائد الطّوال، وتغنّى بوصف ملامحها الجسديّة الفاتنة، والتفت في بعض أشعاره الأخرى صفاتها المعنوية، حيث وصفها وصفًا عذريًّا بعيدًا عن المكاشفة، مكتفيًا برسم صورة خياليّة للمحبوبة"[2].

وفى الشعر الجاهلي كان تمثيل المرأة وحضورها مكثفًا في قصائدهم وأشعارهم، وحظيت باهتمامهم؛ حيث كان ذلك انعكاسًا لحالة الذات الشاعرة النفسية، ونجد في كل قصيدة جاهليّة ملمحًا لذكر المرأة بصورتها الجميلة المثالية؛ فارتبط حضورها

(1)ينظر: عبد الله الغذامي: مقدمة كتاب الشعرية والثقافة - مفهوم الوعي الكتابي وملامحه في الشعر العربي القديم للدكتور حسن البنا عز الدين، المركز العربي الثقافي، الدار البيضاء. المغرب ، ط1، ٢٠٠٣ م، ص ١٠.

(2) حنان محمد حميدة أبو سليم: صورة المرأة في ديوان الحماسة لأبي تمام، عمان - الأردن، مجلة الجامعة الإسلامية للدراسات الإنسانية ،2021م، ص 285.

بنظرته للحياة و إيمانه ومعتقداته؛ فهي "واهبة للخصب والنّماء، وموقدة لمتعة اللقاء، وكاسرة للوحة التي عاشتها الذات بعدما غابت عن الفضاء القديم"[1].

ومع ظهور الإسلام وعصر بنى أمية تتجلى الصورة الحقيقة للمرأة، بما تحمله من مقومات حضارية وثقافية، فقد ركز على تسميتها بـ (المرأة الخصوبة)، "إلا أنّ المرأة قد أخذت بتعاليم جديدة، ومُثل جديدة، زادت من حقوقها المكتسبة على حساب أخيها الرجل، فإذا كانت الحرة لا تعمل في الجاهليّة، ولا تقوم بالأعمال المنزلية - خصوصًا النّساء المتحضّرات - إذ تجد من يخدمها من الإماء والوصيفات، فإنها قد زادت إلى حقوقها في الإسلام الوراثة والنفقة من المال وبدل الرضاعة وغيرها من الحقوق "[2].

ومع مجيء العصر العباسي أصبحت النظرة للمرأة أكثر انفتاحًا وتحررًا عما كانت عليه في العصر الأموي؛ نتيجة تأثرها بمظاهر الحضارات الجديدة، ونتيجة اهتمام الشعراء بالمرأة وتصويرها جسديًّا جعل لشعر الغزل، والوصف مكانة كبيرة لديهم.

وفي الحديث عن تمثيل المرأة في شعر الحماسة، نحاول أن نبحث كيف أثرت الثقافة في إحساس الشاعر ومشاعره والحالة النفسية في تمثيل صورة المرأة؟ وكيف شكلت الأنساق الثقافية المرأة؟ وكيف كونت الذات مركزيتها؟

ومن خلال مطالعة الخطاب والمدونة الشعرية في ديوان الحماسة، نلاحظ بروز النماذج التي تناولت المرأة لدى أبي تمام؛ "إذ حظيت بقدر وافر من اختياراته الشعريّة التي استطاع من خلالها أن يرسم صورة واضحة المعالم والقسمات للمرأة العربيّة" [3].

إن مختارات الحماسة تعطى صورة مركبة متكاملة، تتماشى مع المضمون العام للديوان، وهي في الوقت ذاته نماذج تعبر عن ثقافة حضرية متطورة، وتشير إلى احتفاء الشاعر العربي منذ القدم بالمرأة في فنه، ومدى انعكاس ذلك بشكل واضح في أدبه.

(1) حسين مسكين: الخطاب الشعرى الجاهلي (رؤية جديدة)، المركز الثقافي العربي للدراسات والنشر، الدار البيضاء، ط 1، 2005 م، ص 54.

(2) ينظر: شوقي ضيف: التطورات والتجديد في الشعر الأموي، دار المعارف، القاهرة، ط5، 1986م، ص 225.

(3) عمر أحمد الربيحات، عمر أحمد الربيحات: صورة المرأة في ديوان الحماسة لأبي تمام، مجلة التربية، جامعة الأزهر، العدد 154، ج1 ،2013م، ص 431.

كما يجد الناظر "لتمثيل المرأة الحرّة في حماسة أبي تمام أنّ صورتها تظهر مع الحرب أو المعركة، وهي الصورة التي عاينها أبو تمّام عن قرب، فكانت حية في أشعاره كما هي حية في اختياراته"[1].

وهي أيضًا ممتدة في أبواب الحماسة كافّة، وتظهر كركن أساسي في كلّ باب من أبواب الديوان، وتنوعت بين أشعار أنشدتها بنفسها، وخطاب ذكوري يذكرها؛ فلم تقتصر هذه المختارات على الجمال الجسدي؛ وإنما تطرقت إلى الجمال المعنوي والصفات الأخرى، مثل: البخل، والكرم، والشجاعة، والحب، والغيرة، والثأر، والنائحة، والعاذلة، وهي مرتبطة جميعًا بخيط رفيع.

تمثيل المرأة بالدونية (المرأة بين للتهميش والإقصاء)

من ناحية التدني تعدّ صورة المرأة في المجتمع العربي ـــ وغيره من المجتمعات القديمة - "صورة متدنيّة إذا ما قيست بصورة الرجل في تلك المجتمعات، وهي صورة بثتها ثقافة تلك العصوروعززتها في نصوصها الثقافية سواء في ذلك الأدبي منها أو غير الأدبي"[2].

وقد تكون هناك أسباب وعوامل أدت إلى تلك النظرة الدونية للمرأة، جاءت من الرؤية القديمة المتوارثة، التي ترسخت مع العوامل القبلية المتوارثة؛ منها: الجهل، وظروف البيئة، واستحواذ مجموعة من القيم والأفكار الذكورية التي سيطرت عليهم، والتي حُرمت بمجيء الإسلام، بالإضافة إلى وجود العوامل الطبيعة التي أوجدت فروقًا نوعية بين الذكروالأنثى، في الجوانب الفكرية والوجدانية بجانب الشكل، وهي الفروق الطبيعية المتعارف عليها.

فالعرب كانت تحُبّ الذكوروتفضلهم على الإناث؛ لأنهم جنود القبيلة وحُماتها من الأعداء، أمّا المرأة فتمثل عبئًا ثقيلًا على ذويها من الرجال وقبيلتها التي تتحمل عبئًا ثقيلًا من أجل المحافظة عليها من الأعداء والغزاة؛ حتى لا تُأخذ سبيّة، فتكون عارًا عليهم، بالإضافة لعبء آخر هو المحافظة عليها من الفقرونوائب الدهر؛ فشكلت ولادة

(1) ينظر: عمر أحمد الربيحات: صورة المرأة في ديوان الحماسة لأبي تمام، ص 455.

(2) عبد الله حبيبب التميمي، سحر حمزة الشجيري: دونية المرأة في المجتمع الجاهلي وفوقيتها في الشعر، مجلة جامعة بابل للعلوم الإنسانية، مجلد 22، عدد 2، 2014 م، ص 322.

الإناث عبئًا نفسيًّا وغيظًا وحزنًا. وبالرغم من عدم شيوع هذا الأمر في المجتمعات الجاهلية، فإنه كان أمرًا سائغًا غير محرم ولا ممنوع.

ولم يقف الأمر عند ذلك؛ وإنما "تعداها إلى مراحل حياتها اللاحقة ولا سيما زواجها، فزواج المرأة مما يظهر دونيتها الشيء الكثير...، فقد كانت العرب قديمًا تبخس المرأة حقّها في المهر، ولا تمكنها من الانتفاع به والإفادة منه"[1].

ومع ظهور الإسلام اختلفت هذه النظرة الدونية للمرأة، وهي تلك النظرة العربية نفسها التي ترى في شخصيتها خللًا أو نقصًا. وقد أشار القرآن إلى ذلك في قوله ــ تعالى ــ: (وإذا بشر أحدهما بالأنثى ظل وجهه مسودًّا وهو كظيم، يتوارى من القوم من سوء ما بُشر به) [2]، ونهى عن تلك النظرة الآثمة إلى المرأة، وفي حديث الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ـ:"استوصوا بالنساء، فإن المرأة خُلقّت من ضِلع أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء"[3].

وبالرغم من ذلك ظهر في العصر العباسي الثاني من ينظر إلى الأنثى نظرة دونية؛ بوصفها منقصة ومسبّة. وهذا في حد ذاته دليل على الموروث الثقافي والحضاري، وسُميت بـــ (المرأة المتعة)؛ نتيجة لذيوع الترف والاختلاط في المجتمع، والانفتاح على العوالم الأخرى.

وقد حوت الكثير من النصوص العربية هذه المضامين التي تنتقص من المرأة، فضلًا عن دلالة تلك النصوص الواضحة على تراجع مكانة المرأة ودونّيتها في المجتمع.

ما نود الإشارة إليه هو تلك الرؤية الذكورية للمرأة، التي لا تري فيها إلا جسدًا جميلًا يسعى لاكتشاف تفاصيله، بالإضافةِ إلى عدم اهتمامه بعقلها، وفطنتها، ونضجها الفكري، ورفضه أن تشاركه التفكير و إبداء الرأي.

فالمجتمع العربي قديمًا كان ينظر إلى كلِّ فعل وقول ورأى حسن نظرة ذكورية فيلحقه بالذكور، وينظر إلى كلِّ ما دون ذلك نظرة مؤنثة دونيّة فيلحقه بالإناث.

وهنا تصبح المرأة مهمشة وفي مكانة أدني من الرجل في ظل هذه المجتمعات الذكوريّة، ويصبح الرجل هو (المركز) وهو المنتج للثقافة، أما هي ففي موضع ضعف؛

(1) عبد الله حبيبب التميمي: المرجع السابق، ص 325.

(2) سورة النحل، الآية (58).

(3) حديث صحيح رواه الشيخان عن النبي. صلى الله عليه وسلم. من حديث أبي هريرة.

حيث "مارست السلطة الذكورية ــ مُنذ القدم - نسق التهميش ضد المرأة؛ إذ شكلت ثنائية الرجل والمرأة ثنائية المركز والهامش في الموروث الثقافي العربي[1].

ومن تلك النظرة الدّونية للمرأة كونها ملكًا خاصًّا للرجل في المجتمع العربي القديم؛ حيث تعامل معاملة سلعية نفعية؛ إذ تتحول إلى إرث وتركة تنتقل من المتوفى إلى وريثه [2].

ويُعد هذا ظلمًا للمرأة وإضرارًا بها؛ فهي فضلًا عما تعانيه من فقدها لزوجها، تعاني أيضًا مما يلحقه بها ذووه وورثته من فقد حريتها وكرامتها وامتهانها.

وذلك كله بالرغم من إدراك المجتمع العربي القديم لدورها؛ فقد كان يسند إليها من الأعمال أكثر ما يسند إلى الرجل، فكانت تتولى إعداد الطعام، وحلب النياق، والعناية بالصغّار، وغسل الملابس، وغزل الصوف، وهي تلك الأعمال التي يراها الذكر من اختصاص المرأة، ولا تليق به.

وكانت تلك النظرة الدونيّة السائدة للمرأة على مر العصور هي وصفها بالقبح والخديعة والانحطاط والمكر؛ حيث عدوّها كالحية في المكر والكيد، وفي غوايتها للرجل كانت تُرى كجند من جنود الشيطان. وبسبب تلك النظرة الدونيّة ظلت المرأة تعاني وتئن بسبب ما تعرضت له من اضطهاد، وعدم البوح بمشاعرها، وشدة الظلم الواقع عليها.

وهذا النسق الثقافي المتمثل في دونية المرأة المنتشر في فكر المجتمع وثقافته متوغل في نتاجاتهم الفكرية والأدبية من نثر وشعر؛ من حيث إن المنتج الأدبي وجداني/ واقعي، ينطق بلسان حياتهم وأحاسيسهم؛ فعندما نرصد نسق الدونيّة في أشعارهم نُدرك مدى صعوبة واستحالة تتبع هذا النسق في جلّ نتاجهم الشعري، ولكننا نحاول أن ننتقي منه.

وفيما يأتي نعرض نماذج من الحماسة، تتجلى فيها أنساق ثقافية، تجسد صورة المرأة من المنظور الذكوري؛ في محاولة منا لإبرازها والتركيز عليها.

---

(1) رمضان علي: تعالي السلطة ودونية المرأة وتحولاتها النسقية: نوادر العصر العباسي أنموذجًا، مجلة أبحاث البصرة للعلوم الإنسانية، مج 44، ع1، 2019م، ص10.

(2) عُوملت الزوجة بعد وفاة زوجها كتركة؛ لأنها كانت ملكه وفي يمينه، ويحق للأخ أن يأخذ زوجة أخيه إذا مات ولم يكن له ولد؛ بوصفه الوارث الشرعي لأخيه، وكذلك يرث ابن الأخ هذا الحقّ عن أبيه، بإلقاء الوارث ثوبه على المرأة فتكون في ملكه إن شاء تزوجها، أو يعضلها؛ أي يمنعها من زواج غيره حتى تموت فيرثها.

المبحث الأول:
الخطاب الذكوري والجسد الأنثوي

بداية نود أن نشير إلى أن الخطاب الشعرى الذي يتناول تمثيل المرأة قديمًا وحديثًا يتميز بالتنوع في إبراز صفاتها، فاهتموا بإبراز ما فيها من صفات معنوية وجمال روحيّ وأخلاق كريمة؛ بوصفها "شريكًا للرّجل، وداعمًا أساسيًّا له، تشاطره همومه وأحزانه، وتفرح لفرحه، وتقف خلفه ليرتقي ويؤدّي دوره المنوط به على أكمل وجه"[1]. وقد يرجع السبب في ذلك لطبيعة الإنسان العربي وتكوينه النفسي.

وهناك نماذج كثيرة "تحمل معاني حضور المرأة الإنساني وتفردها الأنثوي، وبنية الشعر تقوم على هذا لحضور؛ فالمرأة ذات معطيات جمالية واجتماعية؛ لذا فهي تمد الأديب بمادة غزيرة"[2]. وهي رمز للجمال والخصوبة والنماء؛ حيث يتغنى الشاعر بجمالها وسحرها، "ولا زال يتغنّى الشعراء بالمعشوقة تغنيهم بها في الجاهلية، من ذكرهم لصفاتها الجسديّة، من طول فارع، وبشرة بيضاء نقيّة مشرقة، وشعر أسود كاللّيل، ويتغنّون بعفافها وتمنعها بعيدًا عن ذكر صفاتها الجسديّة صراحة"[3].

وفى مختارات الحماسة نلاحظ أن تمثيل المرأة جاء معبّرًا وفق المتعارف عليه في كلّ زمان ومكان؛ فشملت علاقتها بالرجل وصفاتها المعنوية/ والجسدية؛ حيث "لا تكتمل صياغة الجسد المؤنث وتمثيله ثقافياً إلا من خلال الرجل،... فالمرأة روحًا وجسداً وفكرة، تتفق في ذهن الرجل، ويتيقظ معها الحب، ويكون الرجل أمامها بين حالتين إحداهما سمو والأخرى هبوط، من خلال مدى تخلصه من هيمنة الجسد "[4].

(1) حنان محمد حميدة أبو سليم: صورة المرأة في ديوان الحماسة لأبي تمام، المرجع السابق، ص 287.

(2) جاسم حميد جوده، حسنين عماد عبد الله الطائي: تجليات صورة المرأة والنسق الثقافي في الشعر العراقي (1875م-1945م)، مجلة كلية التربية للعلوم التربوية، جامعة بابل، 2019م، ص1798.

(3) حنان محمد حميدة أبو سليم: صورة المرأة في ديوان الحماسة لأبي تمام، ص 287.

(4) جاسم حميد جوده، حسنين عماد عبد الله الطائي، تجليات صورة المرأة والنسق الثقافي في الشعر العراقي (1875م-1945م)، ص 1798.

ما نود الإشارة إليه في هذه النقطة هي تلك النظرة الذكورية إلى المرأة، والرغبة في كشف الجسد تزداد بالمبالغة في حجبه؛ حيث إن الجسد "يمثل بتكويناته المختلفة ركيزة أساسية في بناء النص الأدبي والشعرى بوجه الخصوص، من خلال البنية الثقافية التي يتبناها الجسد من كونه محورًا أساسًا لصناعة الصور التي تبيح للشاعر رسمها بأشكال مختلفة حسب الثقافة التي ينتمي لها "[1]؛ فالثقافة هنا هي العامل الرئيس المؤثر في ذلك.

والنظر إلى المرأة من هذه الناحية أسهم في ترسيخ تلك النظرة التهميشية والدونية للمرأة و انحصار دورها، في كونها مجرد جسد، لإشباع رغبات الرجل وإمتاعه، وهو ما ترتب عليه عدم السماح لها بالارتقاء؛ يقول الحسين بن مطير الأسدي (من الطويل):

فَقَدُ جَعَلتُ في حبّة القَلْب والَحشَا عِهادَ الهَوَى تُولَى بِشَوق يُعيدُهَا
بسُودِ نَوَاصِيها وحُمرِ أكُفّها وصُفْرتَرَّ اقِيها وبِيض خُدودُها
مُخَصّرَةِ الأوساط زانَتْ عُقُودَهَا بأحسَنَ مّما زّينَتَها عُقُودُها
يَمنّيّنَنا حتّى تَرِفّ قُلوبُنا رَفيفَ الخُزَامّى بات طَلّ يَجُودُها

وفى خطاب الشاعر يظهر الإعجاب بجمال ومفاتن الجسد الأنثوي، وهي المفاتن التي قد سبق ولفتت أنظار غيره من الشعراء السابقين من قبل، وتظهر براعة التصوير في تقدم صورة جمالية عن مفاتنها، وشكلها، وجسدها (كالجيد، والخدود، والشعر)، وما فيه من سواد وجمال (بسود نواصيها)؛ حيث يدل ذلك اللون الذى يكسو شعرها، على صغر سنها، وتمتعها بالشباب فلم يقترب منها الشيب، ويصف أكفها بأنها مخضوبة بالحناء ذات اللون الأحمر؛ فهي كغيرها من النساء اللاتي تعشق التزيين، ويتنقل الشاعر في خطابه بين ذلك القوام المتناسق/ والخواصر (غير واسعة الجنوب)؛ فهي (مخصرة الأوساط) تتمتع بخصر رقيق، ويكملها بـ (صفر ترائبها)؛ فهي تتطيب بالزعفران، وهذا التناغم في الألوان الطبيعية يدل على أنوثتها بأنها فتاة صغيرة، مخضبة أيديها، متطيبة ومتعطرة، تتزين من أجل الآخرين. وهي بخلاف ذلك كله فاقت جمالًا ببياض جسدها وحمرة خدودها؛ فالنص هنا يعطي ملامح تعكس جمال هذا الجسد الأنثوي الطافح بالأنوثة، وهو ما جعل الشاعر يتفنن في التغزل بهما.

(1) ينظر: جاسم حميد جوده، حسنين عماد عبد الله الطائي، المرجع السابق، ص 1802.

وقد كشف النص عن الموروث الثقافي تجاه المرأة الذي يصفه ملامحها وجسدها؛ فنلاحظ في ذلك نسقًا ثقافيًّا من الثقافة العامة يمثل البيئة العربية القديمة، وبعض العادات والتقاليد التي وظفها في شعره، كما أن ظهور بعض ملامح الجسد، والتفاصيل الجسمانية، تشير بصورة عامة "لما يوحي به النص من لذة المتعة به، وهو من إفرازات الثقافة العربية؛ حيث إن "هذه الثقافة لا تنظر إلى الأنثى إلا مجرد جسد وُجد لإرضاء الرجل وشهواته "[1]. وهو يشير بتلك النظرة إلى المرأة على خضوعها الدائم لسلطة الذكر.

ويشير الغذامي الى أن الجسد الأنثوي"صار مادة للثقافة تمارس بلاغتها فيه، ليس لأنه أهل لهذا التفتيق البلاغي، ولكن الثقافة تريد أن تثبت فحولتها الجسدية واللغوية فاتخذت الجسد المؤنث وسيلة لذلك، وجعلت منه صفحة بيضاء قابلة لأن تكتب عليها الثقافة ما تشاء"([2]).

فتمثيل "المرأة هنا معطى ثقافي، فلم تكن وليدة فكر أو نتاج معرفة جديدة، بل هي صورة تقليدية بدأت ملامحها على أيدي الشعراء منذ العصر الجاهلي، وتبلورت صورتها على أيدي الشعراء الذين تلوهم من خلال السير على النسق المعروف عندهم عن شكل المرأة ضمن حيزهم الثقافي"[3].

ومن خلال مرآة الجسد يمرر الشاعر نسقه الشعرى (الغزل)، ويخفي وراءه نسقًا آخر مضمرًا تعبر دلالاته عن كل ما يختبئ وراءه من قول يعبر عن الشهوة والرغبة في الآخر/ المرأة، التي لا يستطيع الشاعر الافصاح عنها أو البوح بها جهرًا، وهو لذة الاستماع بهذا الجسد.

ويُظهر الخطاب، وصف المرأة من خلال الحضور الطاغي لسيمياء الجسد؛ حيث يُغيب لغة المشاعر والأحاسيس، ويغفل إظهار عواطفها و انفعالاتها ومشاعرها، وروحها، و انصب تركيزه على صفات الجسد وأعضائه التي هي سبب غو ايته وإغرائه؛ فنظرته لها مقتصرة على أنها مجرد جسد فقط.

(1) جاسم حميد جوده، حسنين عماد عبد الله الطائي: تجليات صورة المرأة والنسق الثقافي في الشعر العراقي (1875م-1945م)، ص 1803.

(2) عبد الله الغذامي: المرأة واللغة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط3، 2006، ص76.

(3) ينظر: جاسم حميد جوده: تجليات صورة المرأة والنسق الثقافي في الشعر العراقي (1875م-1945م)، ص 1801.

ويقف الشاعر عند الجانب الشكلي للجسد الذّي استحوذ عليه وعلى لبّ أغلب الشعراء، وفي أبيات أخرى من الحماسة يقول (آخر) [1]:

أبَتِ الــروّادِف والثدي لِقُمْصِهــا مَسّ البُطُــونِ وأن تَمّس ظُهورَا
وإذا الريــاحُ مــع العَشِيّ تنــاوَحت نَهّنَ حاســدةَ وهِجْنَ غَيــُورَا

فيعبر عن ملمح تمثيل المرأة من خلال الغزل ووصف أعضاء الجسد، فأظهر من مَحاسنها ما كانت تخفيه عن العيون والناظرين، من علامات الأنوثة المنبثقة من جمال هذا الجســد الأنثوي والشــغف به، ما دفعه إلى أن "يتخّذ من الجســد محورًا للتذوق الجمالي لكن على نحو تفصيلي"[2]. فوصفها بأنها دقيقة الخصر، لطيفة البطن، وأنها عظيمة الكفل والردف، ثم يجمع بين كل ذلك. وهو ما يجعلنا نقول إن الشــاعر عبر في الخطاب الشعري عن الإعجاب بتلك المرأة وجمالها، ولكنه أخفى ما يضمره، وهي تلك النظرة الشهوانية للمرأة، وهي النظرة الشائعة في كثير من شعر الغزل؛ حيث تكون النظرة هنا إلى المرأة؛ بوصفها مجرد أداة لمتعة الرجل وإغوائه.

والقراءة الثقافية للأبيات توحي أنه بالرغم مما قدمه الشاعر من عرض مقتضب لأنماط الجسد الأنثوي، فإن خطابه يحوي شيئًا آخر (المسكوت عنه)؛ وهو غياب لغة المشــاعر، والعواطف الإنســانية الســامية، وغياب الجســد الأنثوي المثّقف، والعقل الواعي للمرأة، وكأن الشــعراء لم يهتموا بالجانب الفكري للمرأة، ولم يعترفوا بوجوده، وكأن تركيزهم اختزل المرأة في جســد جميل فقط يحقق قدرًا من الإمتاع، ويمنح اللذة، وتكون المفاضــلة للمرأة الجميلة التي تعرض جمالها على الملأ، وتثير في الرجال الإغواء، ورغبة الامتلاك، ومن خلال ذلك تحاول وضع نفسها في صورة مقبولة لدى المجتمع.

وترى الثقافة الفحولية في جســد الأنثى، محركًا لمقومات الجمال الحســيّ والجسدي؛ حيث يمثل الجسد حلقة أولية في الحضور الذكوري، ومن الحماسة قول الشاعر (بكر بن النطاح) [3]:

(1) وردت الأبيات في المقطوعة (490)، شــرح ديوان الحماســة للمرزوقي، ص 1284، لأبي علي أحمد بن محمد المرزوقي، تحقيق: أحمد أمين وعبد الســلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط1، 1991م، ص 1284، والبيتان في الحماسة البصرية، 91/2، وأمالي القالي 23/1.

(2) أحمد محمود خليل: في النقد الجمالي: رؤية في الشعر الجاهلي، دار الفكر 1996م، ص 43.

(3) بكر بن النطاح: شــاعر حنفي من بني حنيفة بن لجيم، أو عجل من عجل بن لجيم وهما أخوان، وكان بكر بن النطاح صعلوكًا يصيب الطريق ثم أقصر عن ذلك، فجعله أبو دلف من الجند، وجعل له رزقًا سلطانيًا، وكان =

بيْضَاء تسـحَبُ من قيامِ فَرْعَها وتَغيب فيـهِ وهـووَحفٌ أسَحَمُ
فكأنَـها فيه نَهـارُساطِـعٌ وكأنَـه لـيـلٌ علىها مُظْلِـم

وإذا تساءلنا كيف تم تصوّير جسد المرأة من منظور الفحولة في هذه الأبيات؟ نجد أن المرأة هنا صورت، وفق منظور الآخر الخاص؛ فهي لم تقّدم نفسها ولكن الآخر هو الذي صورها في الهيئة التي يريدها؛ ما أسهم في ترسيخ النظرة التهميشية للمرأة، واختزلها في الجسد، دون السماح لها بالارتقاء؛ فقد انحصر دورها في إشباع رغبات الرجل وإمتاعه، وفي هذه الأبيات يأتي تمثيل المرأة مثل كثير من النصوص التي تتكئ على إبراز جمال جسد هذه الأنثى بشيء من التوضيح.

والقراءة الثقافية للنص تكشف عن قدرة الشاعر الفائقة على إبراز قيمة جمال ملامح الجسد بصفة عامة؛ فتظهر مفاتن المرأة، مثل: بياض الوجه، والفروع... إلخ ، وينعكس ذلك من خلال ألفاظ الشاعر الغزلية ووصف شعر المرأة بسواد اللون كالليل، وطول شعرها الذي يتدلى من ظهرها، فإذا قامت سحَبْته، وإذا أرسلتْه سترَها، وهي شديدة البياض، تشبه الشمس في إشراقها، وصفائها، كأنها نهار يسطع فيه الظلام (وهو شعرها الأسود كالليل) والمقابلة هنا بين (الأبيض والأسود) لشَد الانتباه وجذبه، فكأن الشاعر بكلماته هذه ينحت تمثالًا لجسد مغرٍ يحقق المتعة ويشتهيه الرجال؛ فالشاعر هنا يظهر أعضاء "جسد المرأة ليس رخيصًا ولا شريرًا، ولكن احتياجات الثقافة الذكورية هي التي أوجدت هذا الإغراء؛ بحيث وضعت جسد المرأة طيّعًا مسالمًا ضعيفًا"[1]، ولكنه بتركيزه الواضح في خطابه على وصف الجسد، يكون فيه تهميش لعقلها، وفكرها، وعد العقل شيئًا عارضًا، والأصل هو الفتنة وكأن تركيزه على تجسيد شكل الجسد الأنثوي ليصل بصورة أكثر وضوحًا للمتلقي، وهو بهذا النسق يهدف إلى ترسيخ نظرة الرجل إلى المرأة نظرة أنثوية الغرض منها المتعة، ولا يكمن لب المشكلة هنا

=بطلًا فارسًا شجاعًا، وكان يحسن الشعر والتصرف فيه، وصف نفسه بالشجاعة والإقدام، وكان الرشيد قد غضب عليه فاختفى حتى مات الرشيد (ت= 192هـ/808م)، ورد ذكره في الأغاني (153:17-161)، وفوات الوفيات 79/1، والبداية والنهاية 208/10، كما وردت الأبيات في المقطوعة (491) في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي، ص 1285.

(1) إ براهيم أحمد بن ملحم، سميحة خريس: في تشكيل الخطاب الروائي: الرؤية والفن، عالم الكتب الحديث، الأردن، (د. ط)، 2010، ص 182.

في أن تكون المرأة مصدر متعة للرجل ... ولكن المشكلة في حصر وظيفة المرأة وأهميتها في هذا القالب"[1].

والنسق المضمر يتخفى خلف تلك النظرة الذكورية التي تنظر من خلالها إلى صفات المرأة الجسمانية، التي تعطي انطباعًا أنها مجرد متعة، خاضعة للذكر، وباعتبار أنه عندما يتفوق الجسد على الروح، يعكس مدى حب الآخر؛ يقصد:(الرجل/ للمرأة)، وهو ما يوحى به خطاب الشاعر المسكوت عنه، والذي لا يستطيع البوح به؛ نظرًا للجانب الثقافي والفكري السائد في الثقافة العربية، وإن كانت لغة النص صريحة"، لكنها لا تتحقق إلا من وراء الأقنعة، وبسبب طبيعة هذه القناع، فإن تحقق هذه اللغة المُقنعة يحمل في طياته دواعي انهياره ...، لكنها سرعان ما تخشى من سيطرة القناع على الوجه، فتقرر أن تسمح للوجه بأن يطل من وراء القناع رغبة في البوح"[2].

ما نلاحظه أن تمثيل المرأة في الشعر العربي يغلب عليه العناية بالجسد؛ بوصف المرأة جسدًا مثيرًا للفتنة، وعند قراءة نصوص شعر الحماسة، نجدها تشير إلي وجه آخر من أوجه تمثيل المرأة الجسد؛ ففي شعر الهجاء وذكر معايب المرأة من خلال وصف الجسد المعيب، والمشوه، الذي فقد ملامح الأنوثة والفتنة و إثارة الرغبة، نجد أن الشاعر أراد بهذه المرأة (العيب والهجاء)؛ فلم يجد غير معايب جسدها وقبح ملامح وجهها ليجسدها في خطابه.

ومن خلال هذه الأبيات وخطاب (الهجاء) الذي اختزل صورة المرأة في الجسد، ويكتفي بذكر مقابحه فقط، ولا يتطرق إلى ما فيها من جو انب نفسية، وفكرية، يقول فيها الشاعر[3]:

اصرميني يا خلقة المجدار	وصليني بطول بعد المزار
فلقد سمتني بوجهك الوصْـ	ـل قروحًا أعيت على المسبار
ذقن ناقص و أنف غليظ	وجبين كساجة القسطار
طال ليلي بها فبتُ أنادي	يا لَثارات مستضاء النهار

(1) ثناء محمد كيلاني: المرأة في الأمثال الشعبية المصرية: دراسة ثقافية، كلية الألسن، جامعة عين شمس، مجلة الألسن، عدد 38، يناير 2022م، ص 42.

(2) ينظر: خضر محمد عطية: جسد الأنثى في مدونة الشاعرة ضحى بوترعة: قراءة ذكورية، الهيئة العامة للكتاب، ع 79، 2011م، ص 133.

(3) وردت الأبيات في المقطوعة (872) في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي، ص 1875.

وهنا يسرد الصفات السلبية للمرأة؛ فهي ذميمة فيها من الثّقل والغلظة ما يجعل الإنسان ينفر مِنْهَا (وَالْمَعْنَى أيتها الغليظة الثَّقِيلَة أبعدى عني فَلَقَد اشْتَدَّ بغضك فِي قلبِي)؛ فكل صفاتها مكروهة، وكل أعضائها متفاوتة، لا يتلاءم خلقها مع بعضه، ومن صفاتها أيضًا أن لها (ذقنًا ناقصًا/ أنفًا غليظًا/ قامة قصيرة)؛ فهنا لم يتحقق الجمال والحسن للمرأة؛ و إنما ظهرت كل ملامح القبح والدمامة فيها من خلال الهجاء.

ومن خلال السرد الذي قدمه الخطاب الشعرى لأنماط الجسد، تتضح أنماط أخرى سكت الخطاب عنها، فلم يعط اهتمامًا للجانب العقلي والفكري للمرأة؛ حيث غاب الجسد الأنثوي الحكيم، والمثّقف للمرأة، وكأنهم لم يعترفوا به أصلًا، والتي أشارت إليه كتب السير، والأخبار.

وجدير بالذكر أن البحث في آليات الخطاب وسياقه، يستلزم قراءة موضوعية متأنية؛ فقد تعددت صورة وصف المرأة في النص الشعري لترسيخ نسق دونيتها، فكما تناولت الذّات الذكوريّة جمال المرأة للتغزل، فقد تناولت قبحها لغرض السخريّة، والتندر، وكأن وصف الجسد بالجمال أو القبح هو الأمر الطاغي، أما وصف المحاسن الثقافيّة أو تصوير العواطف الإنسانيّة فيأتي متأخرًا؛ فالرجل يقف أولًا عند الصورة الجسديّة للمرأة التي تحرك فيه عواطف المتع الحسيّة؛ فالمرأة مستخدمة بدونيّة من قبل السلطة الذكوريّة؛ إذ لم يكن الجمال المعنوي/ الثقافي أو الأخلاقي ليعوض عن الجمال الحسي/ الخِلقي"[1].

ونستخلص مما سبق أن المرأة وصورتها من منظور التمثيلات التي صاغتها الثقافة الذكورية كانت مجرد تابع بجسدها، ولم تكن ذات كيان مستقل بذاته؛ فانحصرت في دور المرأة الوفية/ أو الغواية/ أو الجسد (وهي الصورة التي جعلت الرجل لا يراها إلا جسدًا خُلق لراحته وإمتاعه).

ويرى الغذامي أن الثقافة الذكورية لا تتحمل أو تتقبل و اقعية (الجسد الأنثوي)، ومن الضروري لهذه الثقافة ولكي تظل الأنوثة أن يكون التأنيث قصيًّا ووهميًّا، ومادة للخيال، لكي تكون الأنوثة جذابة ومطلوبة في المخيال الثقافي، وتنتهي جاذبيتها بمجرد

(1) رمضان على عبد: تعالي السلطة ودونية المرأة وتحولاتها النسقية: نوادر العصر العباسي أنموذجًا، مجلة أبحاث البصرة للعلوم الإنسانية، مج 44، ع1، 2019م، ص 14.

تحولها إلى و اقع محسوس"[1]. ونتيجة هذا التصور لطبيعة المرأة، استوجبت الخضوع للهيمنة والوصاية تحت سلطة الذكر؛ من أجل المحافظة عليها وصيانتها وعفتها من الانحراف؛ حيث حمل الخطاب كثيرًا من الأنساق الثقافية الموروثة، والطباع والعادات القديمة السائدة عند العرب، والنظرة للمرأة ووظيفتها في المجتمع.

(1) ينظر عبد الله الغذامي: المرأة واللغة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء. المغرب، ط3، 2006، ص 42.

المبحث الثاني:
المرأة /الشر

هناك الكثير من الصفات الي تعبر عن تمثيل المرأة في الثقافة العربية، التي تشير إلى وجود جانبين: أحدهما إيجابي بوصفها رمزًا للجمال والأنوثة والحنان، والآخر سلبى بوصفها رمزًا للغواية؛ فنجد "أن المرأة تشبه العملة لها وجهان؛ في أحدهما المرأة ترمز إلى الجمال والحسن، والفتنة الإغراء، أما الوجه الآخر فنجد فيه أن المرأة جعلت رمزًا للشر وكل فعل قبيح، من خلال الكثير من الصفات الي تعبر عن تمثيل سلبي لها"[1].

وهناك من يري أن المرأة "مفتاح من مفاتيح أبواب الفتن ومخازن الحزن، إن أحسنت المرأة إليك منت عليك، تفشي سرك، وتهمل أمرك، وتميل إلى غيرك"[2]. من الأمور اللافتة في الشعرية العربية، وفي الخلفية منها الثقافة العربية، نجد أن تمثيل المرأة - في مجمله - يكون تمثيلًا سلبيًّا يتراوح بين المرأة الجسد بوصفها آلة جسدية مسخَّرة ومخلوقة لإمتاع الرجل وإشباع رغباته، وفي هذا التمثيل تكون نظرة الرجل الفحولية إلى المرأة أنها جسد مثير لغرائزه، والتمثيل الآخر الثانية يكون تمثيلًا سلبيًّا أيضًا بوصف المرأة رمزًا للشر والغواية والإيقاع بالرجل في براثن الخطأ والخطيئة والإثم، وفي هذا النموذج توصف المرأة بكثير من الصفات السلبية، مثل الكذب والتدبير الشرير، وأحيانًا البخل الشديد، ومن ذلك قول الشاعر[3]:

لَا تنكحن الدَّهْرمَا عِشْت أَيّمَا مخرمَة قد مل مِنْهَا وملت
تحك قفاها من وَرَاء خمارها إِذا فقدت شَيْئا من الْبَيْت جنت
تجود برجليها وتمنع درها وَإِن طلبت مِنْهَا الْوَدَّة هرت

(1) علاء نجدى أبو المجد: سلطة النسق في العصر العباسي: دراسة ثقافية، رسالة دكتوراة، كلية دار العلوم، جامعة الفيوم، 2020، ص162.

(2) الدميري، أبو البقاء كمال الدين محمد بن موسى بن عيسى بن على: حياة الحيوان الكبرى، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1995م، ٢/٥٦٢.

(3) وردت الأبيات في المقطوعة (868) في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي، ص 1872.

في هذا النص نجد أن حضور المرأة جاء سلبيًّا جدًّا متمثلًا في صورة المرأة (الأيم)، التي سبق لها الزواج وهي الكبيرة في السن؛ ومن ثم فهي ناقصة الأنوثة وغير قادرة على إمتاع الرجل، نتبين ذلك المعنى في قوله: (مجربةً قد مل منها وملت)، فهي كبيرة في السن، لا تَبْتَغِي ولا تُبتغَي، وكأن المرأة ليس لها وظيفة إلا إشباع رغبات الرجل؛ ومن ثم فهي - بحسب النص - لا خير يرتجى منها، ولا نفع يأتي من ورائها.

ثم يكمل الشاعر وصفه لتلك المرأة الأيم بمجموعة من الصفات السيئة، مثل البخل في قوله: (إذا فقدت شيئاً من البيت جنت)، كناية عن الحرص الشديد، والتعلق بتو افه الأشياء، وفي قوله: (تجود برجليها وتمنع درها) صورة مركَّبة، فيها أولًا تصوير المرأة الأيم الطاعنة في السن بالشاة التي تُحلب ولكن ضرعها لا يدر لبنًا؛ للتعبير عن قلة الخير و انعدام النفع، وثانيًا : تشير الصورة إلى أن تلك المرأة الأيم قعدت عن الولادة ولا تحمل ولا تلد، ففي هذه الصورة عبَّر الشاعر عن الوظيفة الاجتماعية للمرأة في الثقافة العربية؛ فهي أداة للمتعة إلى جانب أنها أداة الحمل والإنجاب.

ثم ختم الشاعر النص بجملة نسقية غاية في الأهمية في قوله: (إن طلبت منها المودة هرت)؛ ففي هذه الجملة نفى كل أنواع الخير والمودة التي تجمع بين الرجل والمرأة، لا لشيء إلا لكونها (أيمًا) كبيرة في السن، وهو تمثيل نجده في كثير من النصوص الشعرية.

وننتقل مع الخطاب الشعري لمختارات الحماسة نجد فيه تمثيلًا آخر للمرأة مُحمَّلًا بكثيرٍ من الصفات السلبية التي يتم إلصاقها بالمرأة؛ بوصفها رمز الشر، وتدبير المكايد، يقول الشاعر إياس بن الأرت [1]:

كان مَرْعَى أَمكُمْ إِذْ بَدَتْ عقربة يكومها عُقْرُبان
إكليلُها زَوْلٌ وفي شَوْلِها وَخْزُ أَلِيمٌ مِثْلُ وَخْزِ السَّنانِ
كل عدو يتقى مقبلاً وأَمَكُمْ سَوْرَتُها بِالحِجانُ

فمن خلال قراءة الخطاب الشعري، نلاحظ أن كثيرًا من نصوص الشعر العربي القديم كانت تركز على هجاء الرجال بالخوض في سمعة أمهاتهم، أو الهجاء بشتم الأم، ووصفها بأسوأ الصفات ومن خلال هذا (الهجاء)، نجد التمثيل السلبي للمرأة أول تلك

(1) وردت الأبيات في المقطوعة (621) في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي، ص 1474.

الصفات في تشبيهها بـ (العقرب)، وهو تشبيه سائد في الثقافة العربية[1]، حتى إنه متداول بين الناس إلى يومنا هذا؛ حيث تنعت الأم وتشبيه بأنها تشبه (العقربة الخبيثة السامة) التي تلدغ الناس، فتؤلمهم بلسعتها، وتصيبهم بالتسمم، ومن هذا التشبيه يمكن استكناه دلالاته، بالقول إن العقرب - يعكس المكر، والخداع، وينماز بالخبث، والغدر، والخيانة؛ حيث يكمن في مكانه، ويتنظر ويترقب إلى أن يلسع لسعته ويلدغ فريسته.

والخطاب الشعري يشبه تلك المرأة بالعقرب في وخز الفرائس، ولدغهم وإيقاعهم، وعبارة (يكومها عقربان) فيها تأكيد ذلك التشبيه بالعقرب، وهو يقصد أن من ينكحها، ويعاشرها عقرب مثلها؛ فهي عقربة تعاشر العقارب.

وحتى يؤكد الشاعر المعني، ويصله إلي المتلقي، نجده يرسم صفات وتفاصيل تلك العقربة كنوع من تأكيد المعنى، وفي قوله: (إكليلها زول) يشير إلي إنها تمتلك قرنين تلدغ بهما؛ ومن ثم فـ (في شولها وخز أليم)، فطعنها مؤلمة تسبب ألمًا شديدًا، وهي (سورتها بالعجان)؛ أي قفزتها ووثبتها بالدبر، كما تفعل العقربة، وكأنها عقرب على الحقيقة، وهذه الجمل من المقولات النسقية، التي عبرت عن التمثيل السلبي للمرأة، وقرنت فعلها بالغدر، والشر.

ومن النماذج المشابهة أيضًا للنموذج السابق التي تشير إلى دونية المرأة/ وعدها شرًا في نظرة الخطاب الذكوري، المستمد من ثقافة المجتمع، والقارّ في ذات الشاعر وخطابه الذي يقول فيه[2]:

لا تَنكِحنّ عَجُوزاً إنْ أنيتَ بها واخْلَعْ ثِيابكَ منها ممُعِنًا هَرَبًا
فإنْ أتَوْكَ وقالوا إنّها نَصَفُ فإنّ أمْثَلَ نِصفَيْها الذى ذَهَبًا

ويشير النسق في الخطاب الشعرى السابق إلى تعالي السّلطة الّذكورية ودونّية المرأة؛ فالشاعر هنا يستخدم أوصافًا من القبح والهجاء للسخرية من المرأة كبيرة السن؛ فهي في نظرهم تُمثل شرًا، ويستخدم الشاعر صيغتي (الأمر، والنهي)، فينهي عن نكاحهن

(1) في تشبيه المرأة بالعقربة في اللغة العربية ورد كثير من الأقوال والأمثال التي تدل على ذلك؛ منها ما روي على لسان علي .كرم الله وجهه : " اَلْمَرْأَةُ عَقْرَبٌ حُلْوَةُ اَللَّبْسِةِ". انظر: نهج البلاغة، ص 671.

وفي ثقافتنا المعاصرة نجد ظلال هذا التشبيه في وصف المرأة الماكرة بأنها كالعقرب.

(2) وردت الأبيات في المقطوعة (870) من شرح ديوان الحماسة، ص1874

(لا تَنكِحنّ عَجُوزًا)؛ حتي وإن كانت في منتصف العمر؛ لأنها أصبحت شرًّا، فما طاب من عمرها قد ذهب، ولم يتبق منه شيء يضاف إلى ذلك اتصافها بكثير من الصفات القبيحة، فيصف بشاعة ملامحها، بصورة تسهم في تهشيم الصورة والنظرة الدونيّة؛ فهي (رقطاء) منقطة الوجه بالبرش، ذات فم متسع.

وبالقراءة الثقافية المتأنية للجملة النسقية (فإنّ أمْثَلَ نِصفَيْها الذي ذَهَبًا)؛ دلالة النفور، وعدم الرغبة؛ لأنها كبيرة السن، فقد زالت بهجتها، ورونقها، وفي ذلك إيحاء بتلك النظرة الذكورية، لجسد المرأة التي تمثل لهم مجرد المُتعة، وقد عُرف في الخطاب العربي " النظرة الغريزيّة ذات المُتع الحسيّة للمرأة، فهي الجسد المستلب الذي يتغنى به الشعراء في قصائدهم، فنجد أنّ المحمود من النساء عندهم البيضاء، الوسيمة، الجسيمة، أمّا شر النساء فهي السويداء، والحميراء"[1].

يظهر مع استعمال الشاعر لأسلوب الاستعلاء في خطابه عن المرأة أنه " بداعٍ من تصورهِ الذهني لتدنّ منزلة المرأة و إيمانه بالبون الشاسع الذي يفصله عنها في سلم المراتب الإنسانية حيث هو في أعلاه في حين تستقر هي في أسفله. وهو في ركونه لهذه الصيغة الاستعلائية يسلبُ المرأة حقها الطبيعي في العطاء والمنع الماديين والنفسيين معاً"[2].

قد يكشف الخطاب عن نسق ثقافي فيه تمثيل للمرأة بأن فيها من السوء والضرر وخيانة العهد والنميمة، ولا "تحتاج الأنثى إلى بذل جهد كبير في تحقيق هذه المواجهة؛ إذ إنها تمتلك قدرات وإمكانيات خفية وظاهرة تمكنها من أن تسلط نوعًا من الأذى على الذكر" [3] ، كما أنها سبب لإيقاع المشاكل؛ يقول الشاعر عبد الله بن أوفى الخزاعي[4]:

نَكَحْتُ ابنة المُنتَضَى نكحة على الكره ضَرَّتْ ولم تنفع
ولم تمن من فاقة معدمًا ولم تجد خيرًا ولم تجمع
مُنَجِّذَةٌ مِثْلُ كَلْبِ الهِرَاشِ إذا هَجَعَ الناس لم تنجع

(1) ينظر: أحمد زكى صفوت: جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، المكتبة العلمية بيروت، لبنان، ط1، ص 68/1.

(2) عبد الله حبيبب التميمى، السابق، ص 332.

(3) محمد عبد المطلب: القراءة الثقافية، المجلس الأعلى للثقافة، ط1، 2013م، ص 195.

(4) وردت الأبيات في المقطوعة (646) في شرح ديوان الحماسة ص 1518.

مُفَرَّقَةٌ بيـــــــــن جيرانها وما تســتطيع بينهم تقطع
بقـــــــول رَأَيْتُ لِمَــا لا تَرَى وقيل سَمِعْتُ ولــم تسمع

في هذا الخطاب يمثل الشــاعر المرأة بوصــفها رمزًا (الشــر)، وإحداث الفتنة بين الناس، ونجد التمثيل السلبي للمرأة، من خلال البحث في سيمياء النص وعلاماته، ومن خلال مجموعة من الصــور والألفاظ التي توحي قراءتها أنها صــور نمطية مكررة في تمثيل المرأة. ومما سبق نجد أن الشاعر بجانب وصف زوجته بصفة النميمة، والسعي للإيقاع بين الناس؛ فهو أيضًــا يهجوها بمجموعة من الصــفات النمطية التي توصــف بها المرأة بداية من (ضرت ولم تنفع)؛ فهي امرأة سوء تضر ولا تنفع، وفي كلمة (منجذة) كناية عن كبر سنها، فليس منها فائدة؛ فهي امرأة عجوز، لا تلد، ولا تصلح للتُمْتِع، وهي كناية مهمة تعبر عن نظرة الثقافة العربية القديمة التي كانت تنظر إلى كبر ســن المرأة، وتقدمها في العمر على أنه عيب، أو نقيصة، تؤثر سلبًا في فرصتها في الزواج والإنجاب.

وفي قوله: (إذا هجع الناس لم تهجع)، جملة خبرية تشــير إلى أتصــاف هذه المرأة بالنميمة والوشــاية؛ بهدف الإيقاع بين الناس؛ ومن ثم فهي (مفرقة بين جيرانها)؛ فهي تســعى بهمة للإيقــاع بين الجيران، والتفريق بينهم، من خلال (بقول... وقيل)؛ أي من خلال القيل والقال.

وفي الأمثال العربية ما يعكس اســتنكار المجتمع لهذه الصــفات، وما يشــير إلى أن النميمة مفسدة ومكروهة، حتى وإن كانت حسنة الكلام لينة.

وفي الثقافة العربية أن المرأة التي تتصــف بهذه الصــفة تكون ســببًا في الخراب بالنميمة، تتسبب في العداوة والبغضاء وفي القرآن الكريم لهذا قوله .تعالى: (وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ ۝ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ).

وقد ينطلق الخطاب من نسق ثقافي يستنقص حق المرأة، ويراها ضعيفة مجلبة للخزي والعار، وهذا أحد جوانب التمثيل السلبي للمرأة؛ يقول زميل بن أبير:

ولست بربل مثلك احتمــــلت به عوان نأت عن فحلها وهي حافل
فجئت ابن أحلام النيــام ولم تجد لصهرك إلا نفسها مــن تباعــل

في كثير من نماذج الشــعر العربي القديم نجد تمثيل المرأة بوصــفها الركن الضعيف والعيب المخيف الذي يخشاه الرجل؛ فهي موضع السب والشتم الذي يُعير به الرجل، وهي الموضع الذي قد يجلب له الخزي والعار، وفي كثير من النصــوص نجد ســب الرجل وهجاءه بأهله، ونســاء بيته كأمه وزوجته وبنته، وكذلك نجد الخوض في

سمعة النساء وسيلة مضمونة لإذلال الرجل، وإرغام أنفه؛ بوصف النساء موضع العار عند الرجال.

وفي هذا النص تمثيل لذلك الموروث الثقافي؛ ففي قوله: (نأت عن فحلها وهي حافل) جملة نسقية مهمة؛ حيث النظر إلى رغبات المرأة واحتياجاتها وكأنها أمور محرمة وغير مسموح بها؛ فهي عند الكثيرين من الناس إنسانة منقوصة الحقوق والرغبات الإنسانية؛ فالثقافة العربية تحرم على المرأة أن يكون لديها حاجات، ولا يجب أن يكون لديها رغبة في زوجها (فحلها) إذا غاب عنها. فالشاعر عَير الرجل بأن أمه أنجبته بعد أن نالت منها الشهوة، واحتاجت إلى زوجها (بعلها)، وكأن هذا الأمر معيب في الثقافة العربية.

ويرى د. يوسف عليمات – أن الخطاب الأدبي القديم عامة - والخطاب الشعري الجاهلي "مكمناً لإضمار الأنساق الثقافية المخاتلة، والتمثيلات الإحالية المتضادة، والمسكوتات اللفظية التي لم تفُلحْ القراءة النصّية التقليدية في كشفها"[1].

وتري الباحثة أن الصورة التي الصقت بالمرأة وحصرها في دائرة الشر والجسد الحسي وتجريدها بعيدًا عن محتواها النفسي، يعدّ إمعانًا في دونيتها، و إيغالاً في الإساءة إليها. ونلاحظ أن تلك الصفات التي ذُكرت في قصائد الشعراء ترجع إلى نظرة فحولية؛ فالجسد الأنثوي قدم بصورة مجردة من معانيه من وجهه نظر الرجل، فيها نوع من التشظي، جعلتهم ينظرون إلى المرأة نظرة جسدية دونية، فيرفضون كل ما ينغص حياتهم ولذّتَهم في هذا الجسد الأنثوي، وكل ما يمس رجولتهم وينغص حياتهم، وفي أبيات أخرى يقول الشاعر[2]:

الُامُ على بُغْضِي لما بَيْنَ حَيِـــــــة	وضَبعٍ وتمْسَاحٍ تغَشّاكَ مِنْ بَحْـــر
تُحاكِي نَعِيمًا زالِ في قُبْحِ وَجهِهـــــا	وصفْحتُها لَمّا بَدتْ سَطْوةُ الدّهـــرِ
هى الضّرَبانُ في المَفَاصِل خاليًـــــا	وشُعْبَةُ بِرْسَامٍ ضَمَمتَ إلى النّحْـر
إذا سَفَرَتْ كانَت بِعينيكَ سُخْنَـــةٌ	وإن بَرْقعَتْ فالفقرُ في غايةِ الفَقْـرِ
وإنْ حَدّثَتْ كانتْ جميعَ مصائِـــبٍ	مُوفّرَةً تأتي بقاصِمة الظّهـــــــرِ

(1) يوسف عليمات: النسق الثقافي: قراءة ثقافية في أنساق الشعر العربي القديم، عالم الكتب الحديث، إربد، جدار الكتاب العالمي، عمّان - الأردن، ط1، 2009، ص 2.

(2) وردت الأبيات في المقطوعة (873) في شرح ديوان الحماسة، ص 1886.

حديثُ كَقَلعِ الضّرْسِ أونتْفِ شَارِبِ وغُنْجُ كَحَطمِ الأنفق عِيلَ به صَبْرِي

وتَفْترعن قُلْجٍ عَدِمْتُ حديثَهَـا وعَن جَبَلَيْ طَيٍ وعن هَرَمَيْ مِصـْرِ

نجد أن كل ما يُعني الشـاعر ويحوز اهتمامه ينصـب بقدر تمتُعه بما تمتلكهُ من جمال الشكل والصورة؛ ولذلك يُهملَ كلَّ ما تشعر به المرأة وتحسُّ به من جوانبَ نفسية وخُلقية وروحية، وماعدا ذلك فهو دون الاهتمام.

وتركز الذّات الذكوريّة على وصف المرأة بالقبح؛ فيظهر استعلاؤه واحتقاره للذات الأنثوية وسلبيتها، وتناسوا أن المرأة (تراوغ/ وتفرح/ وتحزن/ وتطيع/ وتعصي/ وتنسي)؛ نظروا إليها نظرة قبيحة مما جعل صورتها أكثر ارتباطًا بالشر والمكر والخديعة؛ فعدوّها كالحية في نعومتها وتلونها.

والجدير بالذكر أن الخطاب الشعرى لم يقتصر على تصوّر الجسد الجميل والمترف للمرأة فقط؛ وإنما نقل صور للجسد الأنثوي المشوّه الذي يفتقد معاني الجمال، فصور المرأة (قصيرة/ منتفخة). كل هذا التجريد من المحاسن وحشد المقابح يكشف عن جسد بشع، ينفر منه المتلقي ويشمئز؛ وبذلك يكون الخطاب الشعري أكثر مصداقية.

الخاتمة

في ختام هذه الورقة البحثية، نستخلص أن صورة المرأة في الخطاب الشعرى الذكوري كانت متفاوتة بين الإعزاز والتدني؛ فلم يقتصر وصفها بالجمال فقط وأنها الزوجة والأم والحبيبة (الجانب الإيجابي)؛ وإنما تطرق إلى وصف (الجانب السلبى) للمرأة والجسد الأنثوي، وركز على صورة الجسد، وأنها رمز للمتعة والغواية (وهي الصورة التي جعلت الرجل لا يراها إلا جسدًا خُلق لراحته وإمتاعه)، كما يتطرق إلى تجريد هذا الجسد من المحاسن وحشد ما فيه من مقابح؛ ما يكشف عن جسد بشع، ينفر منه المتلقي ويشمئز، كما جاء أيضًا تمثيل للمرأة بما فيها من صفات معنوية سيئة تمثلها بأنها (الشر)؛ وبذلك يكون الخطاب الشعري أكثر مصداقية.

المصادر والمراجع

- إبراهيم أحمد بن ملحم، سميحة خريس، في تشكيل الخطاب الروائي: الرؤية والفن، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2010م.
- أحمد زكى صفوت جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان، ط1، دت.
- أحمد محمود خليل، في النقد الجمالي: رؤية في الشعر الجاهلي، دار الفكر، 1996م.
- ثناء محمد كيلاني، المرأة في الأمثال الشعبية المصرية: دراسة ثقافية، كلية الألسن، جامعة عين شمس، مجلة الألسن، عدد 38، يناير 2022م.
- جاسم حميد جوده، حسنين عماد عبد الله الطائي، تجليات صورة المرأة والنسق الثقافي في الشعر العراقي(1875م-1945م)، مجلة كلية التربية للعلوم التربوية، جامعة بابل، 2019م.
- حسين مسكين، الخطاب الشعرى الجاهلي (رؤية جديدة)، المركز الثقافي العربي للدراسات والنشر، الدار البيضاء، ط1، 2005م.
- حنان محمد حميدة أبو سليم، صورة المرأة في ديوان الحماسة لأبي تمام، عمان - الأردن، مجلة الجامعة الإسلامية للدراسات الإنسانية،2021م.
- خضر محمد عطية، جسد الأنثى في مدونة الشاعرة ضحى بوترعة: قراءة ذكورية، الهيئة العامة للكتاب، ع 79، 2011م.
- الدميري، أبو البقاء كمال الدين محمد بن موسى بن عيسى بن علي، حياة الحيوان الكبرى، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1995م.
- رمضان علي، تعالي السلطة ودونية المرأة وتحولاتها النسقية: نوادر العصر العباسي أنموذجًا، مجلة أبحاث البصرة للعلوم الإنسانية، مج 44،ع1 ،2019م.
- شوقي ضيف: التطورات والتجديد في الشعر الأموي، دار المعارف، القاهرة، ط5، 1986م.
- حسن البنا عز الدين: الشعرية والثقافة - مفهوم الوعي الكتابي وملامحه في الشعر

العربي القديم، المركز العربي الثقافي، الدار البيضاء، المغرب ، ط1، ٢٠٠٣ م .

- عبدالله الغذامى: المرأة واللغة،المركز الثقافي العربي، 2008.
- ـــــــــــــــ: ثقافة الوهم ، المركز الثقافي العربي ،1998 م
- عبد الله حبيبب التميمى، سحر حمزة الشجيري، دونية المرأة في المجتمع الجاهلي وفوقيتها في الشعر، مجلة جامعة بابل للعلوم الانسانية، مجلد 22، عدد2 ،2014م.
- علاء نجدي أبو المجد، سلطة النسق في العصر العباسي: دراسة ثقافية، رسالة دكتوراة، كلية دار العلوم، جامعة الفيوم، 2020م.
- عمر أحمد الربيحات، صورة المرأة في ديوان الحماسة لأبي تمام، مجلة التربية، جامعة الأزهر، العدد 154، ج1، 2013م.
- محمد عبد المطلب، القراءة الثقافية، المجلس الأعلى للثقافة، ط1، 2013م.
- المرزوقي شرح ديوان الحماسة، لأبي علي احمد بن محمد المرزوقي، تحقيق: أحمد أمين وعبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط1، 1991م.
- يوسف عليمات، النسق الثقافي: قراءة ثقافية في أنساق الشعر العربي القديم، عالم الكتب الحديث، إربد، جدار الكتاب العالمي، عمّان - الأردن، ط1، 2009م.